**المحاضرة الثامنة : علاقة النقد بعلم النفس**

أغرقت المناهج النقدية الاجتماعية في نسبة قول الأدب إلى الأسباب الاجتماعية، لدرجة صار فيها الأدب صورة فوتوغرافية عن هذا الواقع، و إن استدعت بعض المناهج الجانب الجمالي في النقد، إلا أن الأمر بالنسبة إليهم هو العودة دائما للواقع بوصفه المصدر الوحيد للإلهام، و رغم هذا كله لا يكاد يذكر الأدب إلا و يربط بالإبداع، و تلك هي الفجوة التي سرعان ما انتبه إليها النقاد، فغيروا من وجهة نظرهم قليلا ناحية جانب آخر موجود لا محال و لا يمكن أن ينفصل عنه الأدب، لأنه المادة التي يصنع منها، و الأمر متعلق هنا بقضية أكد عليها أفلاطون و بسببها تم إخراج الشعراء من جمهوريته و قال بضرر الشعر كونه يؤجج المشاعر و العواطف، والأمر لم يتوقف هذا الحد و لكن انتقل إلى أرسطو و مفهوم التطهير عنده.

فتكونت منذ البداية مفاهيم حول الجانب النفسي للأدب، و إن كان التركيز على هذا الحيز من الإبداع لم يبدو واضحا، فالسبب في ذلك نقص البحوث التي تتناول هذا الجانب الوجداني الروحي المعقد التي تحيل إلى ذات يعمها الغموض، و إن كانت بعض البحوث قد أشارت إليها، و لكن في كل حالاتها كان ينقصها الدقة، و تذكر الدراسات النقدية العربية القديمة بعض المحاولات في هذا المجال التي كان أصحابها ابن قتيبة القاضي الجرجاني، ولكن بقي العالم يراوح الأفكار النفسية كما يراوح غيرها إلى أن تم الفتح في العصر الحديث، و استطاع الإنسان أن يطور نظرية في العالم أساسها آراء أفلاطون و أرسطو، و أن يعلن عن وجود المنهج وسيلة بها يتم تحقيق العلمية و الموضوعية، و الأمر نفسه تم مع منهج النقد النفسي.

والبدايات الفعلية لهذا المنهج كانت مع زعماء التحليل النفسي في العالم الغربي، سيغموند فرويد Sigmund Freud و يونغ Jeune، فارتبط الأدب ارتباطا وثيقا بعلم النفس، و صار الأدب منظورا إليه كرد فعل على جوانب في الإنسان مهمشة و مخفية تتحكم فيه قبل أن يتحكم فيها، و تفسير هذا كون الإبداع صورة لعقدة نفسية وجب علاجها، و الأمر في البداية انطلق من مساحة الشعور ليصل إلى منطقة اللاشعور، فعد الأدب عملا غير مفهوم حتى على الكاتب نفسه، و قد عاد في ذلك إلى مجموعة من النصوص الأدبية التي أكدت اتجاهه هذا و انطلاقا من أحداثها و شخصياتها تم الكشف عن مجموعة عقد نفسية.

فالمعروف أن فرويد قد استفاد كثيرا من النصوص الإبداعية التي وضحت هذا الجانب في الإنسان على حد اعتقاده، إذ عالم النفس البشرية غامض و غائر لا يمكن إدراكه بالحواس و هي شروط البحث العلمي، و لكن قد يبقى ما يدل عليه و يشرحه، إذا انطلق المرء من التدوين/الكتابة أو الكلام أو الأحلام، ففي دراساته يقارب كثيرا بين الحلم و الأدب، و يعد الإبداع صورة أو إخراج للكبت الذي يسكن الإنسان فيوقعه في الأمراض النفسية ، وعمل الإبداع هو عمل يتجنب الإنسان من خلاله الوقوع فريسة للمرض، و الوضع كذلك بالنسبة للحلم الذي يتولى مهمة التفريغ.

فالأحلام عادة ما تعبر عن عالم اللاشعور البشري أو الكبت الذي يؤرق الإنسان و يقلقه و التنفيس يكون تفسيرا للحلم الذي يراه الإنسان أثناء نومه، فالإبداع انطلاقا من هذا التصور رد فعل إرادي و لاإرادي شعوري ولاشعوري، يعكس حقيقة ما يدور بداخل الإنسان من انفعالات و مشاعر و عواطف، و كأن الأمر عند فرويد هو استدعاء مباشر للحد الأول الذي ضبطه أفلاطون للشعر، و كذلك فكرة التطهير و التنفيس عند أرسطو، وعلى اختلاف تفسير سبب قول الشعر عند هؤلاء المفكرين المحدثين، و الأمر متعلق بفرويد و يونغ، إلا أن الهدف عندهم الانطلاق من الملاحظات العامة قصد جمع العينة إذ من خلالها يمكن بناء مجموعة من القوانين والمبادئ التي يتكئ عليها علم النفس الحديث.

والانطلاق عندهم كان من أساس لاإرادي تكون فيه الذات مقابلة للهو، مع اختلاف تفسير الهو، فصار للأدب علاقة وثيقة بعلم النفس، و ظهر ما يسمى بمنهج النقد النفسي الذي يعيد أسباب القول عند المبدع إلى هذه العوالم الخفية التي تحدث عنها فرويد لأنه جانب لاشعوري يتم في حالات خاصة للإنسان، و هذا تفسير ارتباط الإبداع عند الإنسان بفترات معينة دون غيرها، ذلك أن الإنسان يكون تحت تأثير دوافع كثيرة مختلفة وبمجرد تمام الكتابة تصرف تلك المكبوتات و يستعيد الإنسان توازنه النفسي، و يتحول الضغط النفسي الذي مر به الإنسان إلى مصادر لإبداع الشعراء و الكتاب، و إن كانت البحوث التي أقامها يونغ بدورها تحاول تفسير هذا العمل الأدبي، إلا أن النقد النفسي ارتبط أكثر بفرويد، زعيم مدرسة علم النفس الحديث.

و عليه، ارتبط النقد النفسي بزعماء التحليل النفسي في العالم الغربي، فرويد و يونغ و أدلر ... فأقر فرويد بأستذة الشعراء و المبدعين في عالم علم النفس، إذ يرى أن هؤلاء طرقوا مواطن يعجز عنها الطب لارتباطه بعالم الأرواح، فربط النقد النفسي بين نتائج علم النفس الحديث و مواطن الشعور و اللاشعور و الهو و كذا الكبت و العصاب و الأمراض النفسية... مفسرة بها العمل الإبداعي، فعدوا العمل الأدبي بمثابة الأحلام دليل المواطن اللاشعورية، و عدوا المبدع مصاب لحظة إبداعه بحالات شعورية و لاشعورية غامضة تكون الكتابة فيها لحظات للتفريغ من أجل تجنب الإصابة بالأمراض النفسية.

و انتقل منهج النقد النفسي إلى العالم العربي و نبغ فيه عديد من النقاد، نذكر محمد سويف و العقاد... وغيرهم من الشخصيات التي رأت ضرورة ربط العمل الإبداعي بنفسية المبدع و ليس العامل الخارجي أو الواقع كما تصورته المناهج النقدية السابقة، و كلها تدور في فلك المناهج السياقية.

**نصوص و تطبيقات:**

يقول مصطفى سويف" إننا نؤثر أن نتحدث عن الخبرة الجمالية قبل أن نصفها بأنها إحساس أو تأثر أو تعبير، فقد تكون كل ذلك و لكنها شيء آخر أيضا، ليست الخبرة الجمالية ذاتية بحتة، إنها لا ترجع فقط إلى ما تنفعل به النفس فهي ليست في جوهرها إحساسا بالسار و بالمكدر، باللذة أو بالألم، و إن كانت الخبرة الجمالية مجسمة فيما يعتري النفس من حركات و انفعالات، كما أنها ليست في جوهرها إشارة إلى الموضوع الحسي الخارجي و لا تمثيلا به، ليست ضربا من التصور الذهني و لا تعبيرا عن أمر موضوعي، أي أنها لا تنتمي إلى الواقع العلمي كما يصوغه العقل و إن كانت تلجأ إلى بعض الوسائل التعبيرية التي يستخدمها العلم من أصوات وأشكال، إن مجال الخبرة الجمالية إذن ليس المجال الذاتي البحت و لا المجال الموضوعي البحت، مجالها بينهما و إن كان يضمهما بشكل من الأشكال، و لدينا موقف الفنان المبدع إزاء أثره أقوى دليل على ما نذهب إليه إذ أن موقف الفنان الحق يتضمن دائما عدم الرضا عن عمله، لأن الفن الحق ليس تقليدا و لا تركيبا سواء اعتبرناه من الوجهة الذاتية تقليدا لما شعرت به ذات الفنان من قبل أو من الوجهة الموضوعية تمثيلا أو محاكاة لما تقدمه الطبيعة "[[1]](#footnote-1).

\*-انطلاقا من القول وضح مبادئ المنهج النفسي؟

1. -مصطفى سويف: الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، ص ص 21-22. [↑](#footnote-ref-1)